تدمر بين الشرق والغرب "التأقلم والصمود"*

جان شارل بالتي

المتاحف الملكية للفن والتاريخ - جامعة بروكسل الحرة - بلجيكا

ترجمة: أحمد فرزة طرقجي

منذ معركة ايسوس ٣٣٣ق.م، التي فتحت أبواب البلاد للاسكندر، وحتى معركة اليرموك ٦٣٦م، التي سحقت فيها الجيوش البيزنطية، كانت سورية يونانية خلال ٩٦٨ عام- ألف عام عملياً[١]- وكانت تشكل جزءاً لايتجزأ من الامبراطوريات السلوقية، الرومانية البيزنطية، وقد شاركت أيضاً خلالها بشكل كامل في تألق الحضارة الهيلينستية في هذا الجزء من حوض البحر المتوسط.

ولكن ربما لم يتم حتى الآن تحليل كاف لتأثير هذه الظاهرة الفعلي، ولم يشر الى اختلاف الفروق فيها من حيث الشدة بين مقاطعة وأخرى في هذا المدى الواسع. وكان يتم التركيز بسبب تعصب الدارسين على المقومات اليونانية للحضارة الهجينة في بعض مظاهرها التي نتجت عنها أكثر من التركيز على مظاهرها الشرقية. ان اعادة تقييم لهذه العناصر او تلك، من شأنه أن يمكننا من تقييم لهذه العناصر، ومن شأنه أن يمكننا من الاحاطة بمدى هذه المكونات في كل حالة من الحالات. وسأحاول ذلك ربما في يوم من الايام، واعيا لصعوبة هذا العمل، ومتأكدا من أهمية هذه الدراسة.

اننا ان ننسى في كل الحالات ان الهلْينة والروْمنة دخلت في مناطق كان فيها مستوى التطور، وخاصة التعليم والعمران في البداية أقل من الموجود لدى الفاتحين. ولكن هنا في بلاد لها حضارات قديمة[٢] وفيها علم وعمران بآن واحد، ادخلت مع المستعمر عادات وتقاليد جديدة فيجدر بنا هنا أن نركز منذ البداية عليها فهذه هي دون شك خصوصية الحالة المدروسة.

إن حديثي هنا مقتصر على تدمر، التي أشير دوماً إلى طابعها الثقافي المختلط[٣]، وحيث كان يشار دائماً إلى العناصر الشرقية أكثر من العناصر الرومانية واليونانية[٤] بعيداً عن الهلينة السطحية التي أشير إليها مرات عدة[٥].

على الصعيد الإجتماعي، لم يعمل الكثير من أجل فهم عميق، اللهم إلا في مادة اللغة فقط. وتجدر الإشارة بهذا الخصوص إلى العديد من الكتابات الرسمية باللغتين اليونانية والتدمرية على الأعمدة الكبرى[٦] وفي السوق العامة[٧]، إضافة إلى نصوص تأسيس القبور[٨] ذات الأهمية القانونية التي لا يمكن إهمالها، في مقابل ذلك تكون الإهداءات الدينية[٩] والكتابات في المنحوتات الجنائزية أغلبها مكتوب باللغة التدمرية حصراً[١٠].

في الحقيقة إن تراجع اللغة اليونانية في النصوص الخاصة نسبياً، لايفاجئنا، لأن اليونانية كانت لغة الحياة الشعبية، في الشارع والسوق والأعمال، أما اللغة التدمرية فهي لغة الدين والخاصة، ولكن حتى في هذا الأمر توجد بدون شك مستويات ودرجات مختلفة

للمثاقفة أو للرفض، فالنحت التمري يدل هو أيضاً على ذلك.

إن ألواح إغلاق قبور المدافن البرجية والأرضية في تدمر[١١] تقدم إزاء الوثائق الأخرى، ميداناً ممتازاً للبحث آن الأوان لاستكشافه بدقة أكثر مما تم حتى الآن، إذ أن المثاقفة والمعارضة في مختلف شرائح السكان أو المجموعات الاجتماعية الأساسية في ذلك العصر، تظهر أكثر وضوحاً مما هي عليه في الأطر العامة. وهذا ليس بقليل الفائدة بالنسبة لدراستنا.

والتماثيل المرتدية العباءات التي تدل على المواطنين الرومان نادرة؛ هناك بعض الأمثلة المحدودة التي تظهر في الأغورا أو في جوارها[١٢] وهي من المرمر بخلاف المنحوتات المحلية ومنها مايحمل إشارات أعضاء مجلس الشيوخ، وترى أيضاً صورة الحكام أو كبار الموظفين أو الموفدين إلى تدمر، أو التدمريين المترومنين، ومن الأسف أن نقول ذلك لعدم وجود أية كتابة تدل على الأمر، ولكن نؤكد وجود هذه الفئة الثانية من الشخصيات، لوجود هيكل أمام التماثيل أو وجود القلنسوة الموضوعة على مخدة، الأمر الذي يدل على أنهم من الكهنة. ويذكرنا ذلك بالعديد من المنحوتات التي اكتشفت في الواحة.

وكقاعدة عامة، في الحياة العامة، يرتدي الرجال العباءة التي يرتديها كل السكان الناطقين باليونانية في الامبراطورية[١٣]، لذلك فإن التدمريين لايتميزون بشيء عن سكان سورية أيام الرومان[١٤]، ولكنهم اقتبسوا بشكل أقل من أي مكان آخر، هذه الهيئات المعاصرة[١٥]، التي تسمح غالبا في الولايات بتصنيف الصور الشخصية، والتي تتأثر لحسن الحظ في أنماط عابرة من المدن، وأنماط من التصويرية مستوحاة من الأباطرة المتتالين. وقد لاحظ بارلاسكا[١٦] التمييز بين لوحين في متحفي تدمر وستانفور، وهما من بين اللوحات المعروفة إلى يومنا هذا، وهذه اللوحات التي يمكن أن نقربها من الصور الرسمية لاسكندر سيڤير، والامبراطور غورديان الثالث. والتأثير في أماكن أخرى أكثر غموضا[١٧]، وينحصر غالباً في تسوية الشعر[١٨] ولا يؤثر إلا نادراً في تقاطيع الوجه.

بالمقابل فإن صور النساء في تدمر تبتعد عن تقليد الامبراطورات اللواتي لم ينقل منهن أسلوب ترتيب الشعر الذي يتبدل باستمرار[١٩]، فالتدمريات لهن عادة عصابة عريضة على الجبين تغطي خصل الشعر كلها، وعمرة ثقيلة تخفي بقية الجمجمة، أما الزينة فغنية جداً[٢٠]. وقد لوحظ منذ زمان كم تشبه حليهم حلي البدويات في أيامنا، وأكثر من ذلك، ولكن الأمر هنا مرّ بشكل سريع حتى الآن ولم يثر إلا قليلاً من الشروحات، وغالباً ما كنّ يحملن إلى صدورهن أطفالاً صغاراً[٢١] يحضنهم أو يرضعنهم[٢٢] ويمسكن بمغزل ودرارة[٢٣] أو مفتاح[٢٤]، هذه الأدوات تدل على دورهن التربوي[٢٥] وحماية البيت، أو رمز للنشاطات التقليدية للمرأة، وهي تدل على القيم القديمة المحافظ عليها أمام الغازي.

وأجد من الصعوبة أن أعتبر أن المفتاح هو رمز للمدفن رغم وجود منحوتة - وليست الوحيدة - في كوبنهاغن تحمل عبارة (البيت الأبدي)[٢٦]. وتشير مجمل الحالات بدون شك إلى القبر، وهناك أمثلة أخرى أو نصوص مختلفة بقيت غير مكتشفة أو أنها مختصرة، وبقيت غير مفهومة بالنسبة لنا. وإذا كان علينا أن نميز كما يفعل بارلاسكا بين المفاتيح باليد وتلك الأصغر التي تتدلى منها كرة، ماهي إلا مفاتيح صناديق الحلي[٢٧]، فلا نرى بأن النساء اللواتي يحملن مفتاح القبر هنّ (حصراً نساء)، وعندما ننظر إلى الأمثلة النسائية جميعها[٢٨]، نرى رجلاً واحداً فقط مصوراً وهو يحمل مفتاح[٢٩]، غير أن الرجل وحده هو الذي يبني القبر ويخصصه بالنسبة له ولأولاده، وذلك حسب صيغة معروفة، ودل على هذه الشخصية م. غافليكوفسكي ودرس بعضاً من خاصيتها[٣٠]. ويظهر عدد من أعضاء هذا القبر. ولكن في حالات نادرة تظهر نساء وبينهن أرملتان على الأقل تملكان بشكل قانوني أجزاء من المدافن[٣١]، وهذه ليست استثناءات. وكما يبدو لي، يجب ترجيع المفتاح والمغزل إلى الحياة الريفية، وهذا مما تدل عليه حسبما أرى، اللوحات على بعض الأبواب الفريجية من (دوريلية)[٣٢]. حيث لايمكن للمفتاح أن يكون مفتاح القبر، إذا ماقارناه مرة أخرى مع العصا والمغزل وكذلك المرآة والمشط والسلة، التي تشير بدورها إلى النساء.

إلى جانب الرجال الذين يتوجهون نحو الخارج وأكثر تقبلاً للتأثيرات الخارجية الغربية[٣٣]، فإن التدمريين يظهرون مقاومة، نجد بعض معالمه نحو الامبراطورية، هذه المقاومة تظهر بنفس الشكل في ارتداء لباس الرأس المحلي واللباس الوطني، ووجود الأطفال إلى جانبهم، وإلى المغزل باليد.

وهذه صفات للعديد من التماثيل الموجودة في ضواحي منبج، وبلقيس في حوض الفرات[٣٤] وفي الحدود الشمالية في (بانونيا) على نهر الدانوب[٣٥]. هذه المناطق الحدودية هي أيضاً حيث البيئة التحتية المحلية الشرقية من ناحية والسكنية من ناحية ثانية، كانت أيضاً قوية وحية. سأعود إلى هذا مع بعض التفاصيل[٣٦]، ولكنها تشكل فريقاً منفرداً في هذا الإنتاج الكبير من التماثيل وهم يرتدون زينات كهنوتية غنية[٣٧] ويمسكون بأيديهم المبخرة التي تشير إلى ممارسة عملهم الديني ويعتمرون القلنسوة المستديرة العالية التي يرتديها بعض من رجال الدين الشرقيين[٣٨].

وصورتهم تكون بشكل صورة جبهية وهذا يشير إلى الميزة الكهنوتية. وكذلك إلى رأسهم الحليق[٣٩] مما ينفي أية مقارنة مع قصات العصر، فإنهم يهربون نوعاً ما من الزمن. وهذا شاهد جديد على المقاومة الظاهرة للإندماج، كما شهد بذلك تماثيل الرجال، كما ذكرنا، وهذا لامجال للشك فيه.

وليس بمستغرب أن تكون بين النساء والكهنة في مناطق الحدود في قلب الصحارى أو في وديان الألب الصعبة قد ظهرت التيارات المقاومة للثقافة الهيلنية، وإن هاتين الفئتين الإجتماعيتين المنوط بهما حفظ التقاليد الأسرية والدينية بخلاف الرجال المنخرطين في الحياة الإقتصادية والسياسية هما اللتان حفظتا «الهوية». إن أشكال التماثيل هذه الموجودة في المدافن والمتفرقة اليوم في متاحف العالم هي انعكاس لمستوى ثقافة المجتمع. ومستوى خيارات المشاركة كان ببعض التمايز عند الآخرين، وببعض الرفض للآخرين.

* راجع التعليقات والمراجع في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي.